

حكاية أزهار... انتصار نور القلب
رمضان مصطفى سليمان



في إحدى القرى الوادعة التي كانت تستلقي عند سفح جبل أخضر، وتعانقها الحقول من الجهات الأربع، وفي زمن كانت فيه البيوت تُبنى بالمحبة أكثر مما تُبنى بالحجارة، وُلدت أزهار في صباح ربيعي من أوائل شهر أبريل. كان النسيم يحمل رائحة أزهار البرتقال، وكانت العصافير تسبق الناس إلى الاحتفال بميلادها، كأن الطبيعة كلها قررت أن تهدي العالم زهرة جديدة.

كانت أزهار تشبه زهرة برية نبتت من تلقاء نفسها وسط أرض عطشى للحياة. لم تكن أجمل بنات القرية فحسب، بل كانت أنقى قلوبهن. كانت ابتسامتها تأتي كما يأتي الفجر دون موعد، وتمنح من حولها دفئاً لا تصنعه الكلمات.

نشأت بين أبوين جمعهما الود و المحبة ، كما يجتمع الظل بصاحبه، وكما يأوي طائران إلى عش واحد لا يعرفان فيه سوى السكينة و التآلف. كان بيتهما صغيراً، متواضع الأثاث، لكنه واسع بالمحبة. لم تكن الجدران شاهقة، غير أن سقفه كان مرفوعاً بالدعاء، وكانت نوافذه مفتوحة دائماً للشمس والضيوف.

كبرت أزهار وهي تلهو بعرائس القماش التي تخطيها أمها بيديها، وتجري بين أشجار التين و الرمان و البرتقال ، وتطارد الفراشات الملونة في البستان المجاور. كانت تحفظ أسماء الزهور كلها قبل أن تحفظ أسماء المدن، وتعرف أصوات الطيور المغردة أكثر مما تعرف أصوات البشر.

لم تعرف الحقد يوماً ، ولم تستطع أن تكره أحداً ، حتى من أساء إليها. كانت ترى الخير في الوجوه قبل أن ترى ملامحها ، وتظن أن القلوب كلها تشبه قلبها الناصع البياض ومرت السنوات كما تمر الفصول.

أخذ الربيع بيد الطفلة الصغيرة ، حتى سلمها إلى صيف الشباب. بدأ وجهها يزداد إشراقاً ، وازدانت ملامحها بحياء هادئ يزيدها جمالاً. عندها أخذت تسرح بخيالها بعيداً ، تفكر في اليوم الذي ستغادر فيه بيت والديها إلى بيت آخر.

كانت تسأل نفسها كل مساء :

" هل يمكن أن يكون هناك بيت يحتضنني كما احتضنني بيت أبي ؟
هل سأجد قلبًا يمنحني الطمأنينة نفسها ؟ وهل تستطيع الأيام أن تعيد
دفع الطفولة في مكان آخر ؟ "

لم تكن تعلم أن المستقبل يبتسم أحيانًا ليخفي أنيابه.

قبل سنوات قليلة من رحيله ، كان جدها يجلس كل مساء تحت شجرة
الرمان العتيقة ، يسبح بحبات مسبخته الخشبية ، ويراقب الغروب بصمت
الحكماء.

وفي إحدى الأمسيات، نظر إليها طويلاً ثم قال :

" يا أزهار... احفظي هذه الكلمة ما حييت .. ليس كل ما يلمع
ذهبًا. فالبصاق يلمع تحت الشمس، والزجاج المكسور يلمع، والماء
العكر قد يخدع العين ببريقه، والنار تلمع وهي تحرق "

ضحكت يومها ، وظننت أن جدها يحدثها عن الأشياء، لا عن
البشر.

لكن الكلمات الحكيمة لا تفهم ساعة تُقال ، وإنما ساعة يحتاجها
القلب.

وفي صيف العام التالي ، جاء إلى القرية شاب وسيم يمتطي
حصانًا عربيًا أصيلًا ، يرافقه رجال بملابس أنيقة ، وسيارات فاخرة
تنتظر عند أطراف الطريق الترابي.

كان الجميع ينظر إليه بإعجاب.

هيئته تسبق خطواته ، وكلامه ينساب عذبًا كالموسيقى ، وثيابه
تنطق بالثراء.

حين وقع بصره على أزهار، ابتسم.

وحين التقت عيناه بعينيها، شعرت بشيء يتحرك في أعماقها
لأول مرة.

تقدم لخطبتها.

لم يعترض والدها ، فقد بدا الرجل مثلاً للشهامة ، ورأت أمها في
ملامحه مستقبلًا آمنًا لابنتها.

أما قلب أزهار، فقد وافق قبل الجميع.

امتألت القرية بالأغاني. ازدانت الساحات بالأضواء، وتعالَت
الزغاريد حتى خُيِّل للناس أن السماء تشاركهم الفرح. رقص الأطفال ،
وغنى الرجال ، وتبادلت النساء التهاني.

شربوا الشاي والعسل وعصير العنب ، واستمر الاحتفال حتى
بزغ الفجر.

ظل الناس يرددون أخبار ذلك العرس سنوات طويلة ، كأنه أجمل
حكايات القرية.

انتقلت أزهار إلى قصر يشبه الأحلام.

بوابة ضخمة من الحديد المشغول، وحديقة واسعة تتناثر فيها
الورود والياسمين، وخدم يتحركون في كل اتجاه، وسيارتان فاخرتان
تقفان أمام المدخل كأنهما قطعتان من الضوء.

في شرفة القصر ، وهمست لنفسها :

" أهذا حقًا بيتي ؟ أهذه حياتي الجديدة ؟ أيمن لابنة الفلاح
البسيطة أن تصبح أميرة بين ليلة وضحاها ؟ "

ثم أخذت تحدث نفسها طويلًا :

" لن أستيقظ بعد اليوم على صوت الديك ، ولا على رائحة خبز
أمي الساخن ، ولا على خوار البقرة وثغاء الشياه. سأعيش هنا... حيث
الموسيقى لا تنقطع ، والأبواب تُفتح قبل أن أطرقها، والخدم يلبنون
الإشارة قبل أن أنطق ".

ظنت أن الأحلام حين تتحقق لا تنتهي.

لكنها كانت قد بدأت تنتهي بالفعل.

لم يدم الربيع سوى شهر واحد. ثم هبت عاصفة خفية لم يسمع
الناس صوتها ، لكنها اقتلعت كل شيء في قلب أزهار.

بدأ زوجها يعود متأخرًا. ثم صار يغيب أيامًا. ثم أصبح وجودها
في حياته يشبه قطعة أثاث لا يلتفت إليها.

لم يعد يناديها " زهرة القصر." لم يعد يسألها عن يومها. ولم
تعد عيناه تضيئان حين يراها. كان جسده في البيت، أما قلبه فقد رحل
إلى مكان آخر.

و ذات ليلة، بينما كانت ترتب ملابسه ، وجدت صندوقاً صغيراً مخبأً في عمق خزانته.

ترددت. ثم فتحته. خرجت منه رسائل معطرة، وصور نساء كثيرات، وكلمات حب متشابهة، كتبها بخط يده.

جلست على الأرض. شعرت أن العالم كله انهار فوق كتفيها. لم تكن المرأة الأولى. ولن تكون الأخيرة.

كانت مجرد رقم جديد في سلسلة طويلة من القلوب التي خدعها البريق.

ومنذ تلك الليلة، بدأت تذبل. صار المرأة تخيفها. اختفى بريق عينيها، وشحب وجهها، وغزا الهزال يديها.

كانت تناديه، فيسمع الصوت ولا يسمع الوجع. تبتسم، فيرد عليها بالصمت. وتجلس قربه، فيبتعد دون أن يتحرك.

وفي وحدتها، كانت تحاور نفسها : أي ذنب ارتكبته ؟ هل قصرت في حبي ؟ هل أخطأت حين صدقته ؟ أم أن الخطأ الوحيد أنني ظننت القلوب تشبه قلبي ؟

ثم كانت تجيب نفسها والدموع تغلبها :

ما أقسى أن يُفتح لك الباب مزيئاً بالورود ، لا لتدخل ، بل لتخرج منه مكسوراً. وما أشد وجع الإنسان حين يكتشف أن الحلم الذي عاش فيه لم يكن إلا سراباً طويلاً***".

لم تطل الإقامة. عادت أزهار إلى بيت أبيها.

كانت الطريق نفسها التي سلكتها يوم زفافها، لكنها بدت أطول بكثير.

هذه المرة لم تكن الزغاريد تسبقها. بل كانت الدموع.

فتحت أمها الباب، وما إن رأتها حتى احتضنتها دون سؤال.

أما والدها، فاكتفى بوضع يده على رأسها ، فقد كانت بعض الأحزان أكبر من أن توصف بالكلام.

بكى الجميع. ثم ضحكوا حين شعرت أزهار لأول مرة أنها عادت إلى وطنها الحقيقي.

مرت أيام طويلة حتى بدأت الحياة تعود إليها.
خرجت إلى البستان. لمست أوراق النعناع. سقت الورد. راقبت
الدجاج وهو يلتقط الحبوب.
ثم رفعت رأسها إلى السماء الزرقاء.
هناك فقط أدركت أن البساطة ليست فقرًا، بل ثراء لا يراه إلا
أصحاب القلوب المبصرة.
جلست تحت شجرة الرمان. وتذكرت جدّها. سمعت صوته كأنه ما
يزال حيًا :

" ليس كل ما يلعب ذهبًا ".
ابتسمت لأول مرة منذ شهور. وقالت في سرها :
" الآن فقط فهمت يا جدي ".
مرت أعوام.
وفي صباح خريفي هادئ، طرق باب البيت رجل بسيط. لم يمتط
حصانًا. ولم ترافقه سيارات.
كان يرتدي ثياب الفلاحين، ويحمل قفة صغيرة فيها تمر، ولوز،
وجوز، وقليلًا من الحناء.
وقف أمام والدها وقال في هدوء :
" جئت أطلب ابنتكم أزهار... فإن رضيتم، فذلك فضل من الله ".
لم يقل شعرًا. ولم يزين كلامه. لكن الصدق كان يخرج من عينيه
قبل شفثيه.
وافقت أزهار. هذه المرة لم يسبق القرار إعجاب بالمظاهر، بل
طمأنينة عميقة.
بدأت حياة جديدة.

كان زوجها يخرج مع الفجر إلى الحقول ، ويعود مع الغروب وقد
غطى التراب ثيابه ، لكنه لم يسمح يومًا أن يغطي قلبه الكذب.
عرفه الناس بالصلاة، والأمانة، والعمل. لم يعرف المراوغة.
ولم يتقن الأقتعة.

كان بسيطاً... لكنه حقيقي.

رزقهما الله ثلاثة أبناء :محمد، وسعيد، وجمال.

كبروا في بيت صغير، لكنه امتلأ بالرحمة.

كانت أزهار تعلمهم كل مساء درساً لا تمل منه.

تقول لهم : " يا أبنائي... لا تتخدعوا ببريق الأشياء. فالكتاب لا يُعرف من غلافه. والإنسان لا يُوزن بثيابه. والقلوب هي التي تمنح البيوت قيمتها، لا القصور".

ثم تضيف وهي تنظر إلى السماء :

" لقد خسرت يوماً حين ركضت خلف اللعان. وربحت عمري كله حين اخترت النور".

ومرت السنوات.

اشتعل الشيب في شعر أزهار ، وانحنى ظهرها قليلاً ، لكن قلبها ظل مستقيماً كما كان.

أصبحت نساء القرية يقصدنها طلباً للنصيحة، وكانت كلما سألتها فتاة عن الزواج قالت بابتسامة هادئة :

" ابحتي عمن يخاف الله فيك، لا عمن يبهر الناس بثروته. فالجمال يذبل. والمال يزول. أما الوفاء، فإذا سكن قلباً، صنع منه جنة لا تقنى".

وفي كل مساء، كانت تجلس تحت شجرة الرمان نفسها، تتأمل الغروب ، وتدعو لجدها بالرحمة.

أخيراً أدركت أن الحياة لا تقاس بما نملك ، بل بمن يظل ممسكاً بأيدينا حين تنطفئ الأضواء.

وهكذا انتصرت أزهار على انكسارها ، لا بالانتقام ، ولا بالحزن ، بل بالإيمان ، والصبر ، والرضا.

واكتشفت أن أعظم الكنوز ليست تلك التي تلمع أمام العيون، وإنما تلك التي تسكن القلوب، وأن الإنسان قد يخسره البريق مرة، لكنه إذا تعلم الدرس، فلن يخسره السراب مرتين.

